

الموراثية نتيجة لكونه مسيحيا منغمسا انغماسا شديدا بمسائل لاهوتية حول علاقة الخالق بالمخلوق . وهاتان الناحيتان لا تجدان بسهولة صدى في نفس القارئ العربي المسلم أو حتى المسيحي ما لم يكن قد تعرف الى هذه المسائل وتمرس بها . أضف الى ذلك ان رؤياه الشخصية جدا ، مصاغة بأسلوب شخصي جدا ومفردات شخصية جدا أيضا ، لا تجعل من آثاره رائجة وشائعة أو سهلة الفهم والتذوق بين القراء . الا انني اعتقد ان العمق والاصالة والاخلاص والشجاعة لدى توفيق كشاعر تحدى التقليد ستجعل منه انسانا معروفا على نطاق واسع ولو متأخرا .

بدأ توفيق ينظم الشعر في اواخر الاربعينات ونشر بعضا من شعره في مجلة «صوت المرأة» التي رأس تحريرها لفترة قصيرة في بيروت . واختار منذ البداية الشعر الحر وسيلة للتعبير عما يتأجج في نفسه . ومنذ البداية كان متهددا لانه عرف ان ما اراد ان يقوله لم يكن ممكنا احتواؤه في الصيغ القديمة . لقد جاء شعره نوعا متطرفا من الشعر العربي الحر الذي أخذ يظهر في الدوائر الادبية العربية في اواخر الاربعينات واولئ الخمسينات ، ذلك ليس فقط لان الشعر الحر رفض كل المفاهيم الكلاسيكية حول الاوزان والقوافي بل أيضا لانه لم يقبل بالعروض الجديد الذي أخذ يشق طريقه في صفوف الشعراء العرب الشباب والذي يعتبر التفعيلة المنفردة الوحدة العروضية الاساسية في الشعر ، ذلك مقابل التفعيلة المتعددة ( البحر ) في بيت الشعر العربي الكلاسيكي والتغيرات الحديثة التي دخلته . لقد كان شعر توفيق متحررا من جميع الاشكال الشعرية السابقة وخارجا على الوزن والقافية . لقد جاء شعره حرا ومنسابا ، وتموجا رقرقا ، وغزيرا جارفا ، منسجما مع انسجام وتناعم الفكرة التي تنساب مع الكلمات التي تحملها محدثة جرسا موسيقيا جميل الابتاع . ان توفيق لا يعترف في شعره الا ببذخات الجملة المناسبة مع نبض الفكرة .

القصيدة لدى توفيق هي كليا تعبير حر عن التجربة الانسانية ، هي تعبير يحملها الشاعر الى القارئ لا من أجل ان يتحسس التجربة بل بصورة رئيسية من أجل ان ينفث الشاعر قوة داخلية احدثت ألما في نفسه فأحس به وكأنه شحنة كهربائية تزداد قوة وتزيده ألما بازدياد قوتها وتزيده في أثناء انطلاقتها خلقا وابداعا شعريا . من الواضح ان مفهوم الشعر هذا لم يكن ليقتبل قيود العروض التقليدية لانه لم يرض ان يكون مقيدا وملجما ويفقد بالتالي طبيعته . ان مفهوم الشعر هذا آمن بحرية الشاعر حرية تامة في التعبير عن رؤياه الذاتية وعالمه الخاص بلغة عربية معبرة جدا عن ذلك . لقد نظم قليلون من الشعراء شعرهم مثله في ضوء هذا المفهوم ومنهم جبرا ابراهيم جبرا وانسي الحاج ومحمد الماغوط ثم ادونيس . ان غالبية «أصحاب الشعر الحر» الآخرين اختاروا الاحتفاظ بالتفعيلة في نظم شعرهم كما احتفظوا أحيانا بنوع من القافية ، وانغمسوا انغماسا عميقا في شؤون امتهم العربية الاجتماعية - السياسية عندما كانت الأمة العربية تمر في مرحلة مضطربة اضطرابا عظيما بشأن التغيير وأزمة الهوية في منتصف القرن . وقد كان شعرهم ، الذي تعرض لهجوم العناصر المحافظة في المجتمع ، ملتزما بقضية الجماهير ومتبنيا مواقف أيديولوجية ماركسية أو متمسكا بمبادئ الواقعية الاشتراكية .

أما توفيق صايغ فلم يكن ملتزما الا برؤياه الشخصية ولم يتمسك بغير مبدأ الحرية الفردية في تعبير جمالي . ومن هذه الناحية يمكن اعتباره من أكثر المتبردين تطرفا في الشعر العربي الحديث ، ولذلك قد يكون واحدا من العرب القلائل الذين فهموا معنى « الحديث » وليس فقط معنى « المعاصر » في مجال الإبداع الفني في القرن العشرين (٢) .